العدد 2447 - السنة التاسعة
الخميس 14 رجب 1437 - الموافق 21 إبريل 2016
Thursday 21 April 2016 - No.2447 - 9th Year

التعاون على البر والتقوى

إنَّه من سنن الله في الكون أن تتفاوت قدرات الناس وطاقاتهم، وتتباين ملكاتهم وحاجاتهم، فأحدهم مستطيع، وآخر عاجز، وبعضهم أغنياء، والآخرون فقراء، لقد أخبر النبيّ – صلى الله عليه وسلم – بأن يد الله على الجماعة، وهذا مما يُدركه العقلاء؛ إن الجماعة خير من الفرقة، وإن الانعزالية والأثرة مدعاةٌ للمشقة والضياع والهلكة؛ لذا حرص الإسلام أشد الحرص على جعل المسلمين أمة يتكافل أفرادها فيما بينهم، ويتعاون بعضهم مع بعض، فالقوي يستخدم قوته لنصر الضعيف، والغني يجعل غناه في قضاء حاجة الفقير؛ يقول الرب – عز وجل –: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]؛ فالتعاون في الإسلام أن يعين بعض المسلمين بعضًا؛ قولًا وفعلًا، كما عرّف به الشيخ عبدالرحمن السعدي: «الإعانة هي: الإتيان بكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، والامتناع عن كل خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها، وينشط لها، وبكل فعل كذلك وكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه» (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 218).

ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: 2]: هو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البرّ والتقوى؛ أي: ليُعِنْ بعضكم بعضًا، وتحاثّوا على أمر الله – تعالى – واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا منه، وهذا موافق لما روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: ((الدال على الخير كفاعله))، وقد قيل: الدال على الشرّ كصانعه، والتعاون على البرّ والتقوى يكون بوجوه؛ فواجبٌ على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة: ((المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم))، ويجب الإعراض عن المتعدي، وترك النصرة له، وردّه عما هو عليه؛ (الجامع لأحكام القرآن، 6/46–47).

ويتحدث ابنُ القيم عن هذه الآية الكريمة فيقول: اشتملت هذه الآيةُ على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم؛ فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين؛ واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخَلق: من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدّين كله؛ (زاد المهاجر: 1/6-7)، وقد بين – رحمه الله – ما للتعاون على البرّ والتقوى من الضرورة والأهمية في المجتمع الإنساني فقال: «والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم هو التعاون على البرّ والتقوى، فيعين كل واحد صاحبَه على ذلك علمًا وعملًا، فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك، ولا بالقدرة عليه، فاقتضت حكمة الرب – سبحانه – أنْ جعَل النوع الإنساني قائمًا بعضه ببعضه، معينًا بعضه لبعضه»؛ (زاد المهاجر: 1/13).

يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: ((مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى))؛ (صحيح مسلم، رقم: 2586).

فالتعاون على الخير من الفطرة التي فطر اللهُ عليها الناس، كما يقول ابن خلدون في مقدمته: «الإنسان قد شاركته جميعُ الحيوانات في حيوانيته من الحس، والحركة، والغذاء، والكنّ، وغير ذلك، وإنما تميّز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه، والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيئ لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله – تعالى – والعمل به، واتباع صلاح أخراه»؛ (مقدمة ابن خلدون: 1/429).

وهذا التعاون والتعاضد والتضامن يأتي بأضعاف مضاعفة من النتائج الحسنة والثمار الطيبة في كل عمل من الأعمال المفيدة، وإلى هذا أشار ابن خلدون فقال: قد عُرف وثبت أن الواحد من البشر غيرُ مستقل لتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعًا في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسُدّ ضرورة الأكثر من عددهم أضعافًا؛ فالقوتُ من الحنطة مثلًا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه، وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حدّاد ونجار للآلات، وقائم على البقر، وإثارة الأرض، وحصاد السنبل، وسائر مؤن الفلح، وتوزّعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات؛ فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم؛ (المصدر السابق: 1/360).

وقد أكد الرسول – صلى الله عليه وسلم – على التعاون بين المسلمين، وجعل ذلك من شعارهم، ودليلًا على إيمانهم؛ فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: بينما نحن في سفر مع النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((مَن كان معه فضل ظهر فليعُدْ به على مَن لا ظهرَ له، ومَن كان له فضل من زاد فليعُدْ به على مَن لا زاد له))، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حقّ لأحد منا في فضل؛ (صحيح مسلم، رقم: 1728).

لقد عُني الإسلامُ بالتعاضد والتناصر والتكافل والتعاون فيما بين المسلمين أيّما عناية، حتى جعل الصلاة التي هي عماد الدين عملًا يعرف به المسلمُ ما يعيشه أخوه المسلم من بلاء ومحنة وضيق وشدة بعد حضوره في المسجد، وشهوده الصلاة مع الجماعة، وجعل الإحسان إلى المساكين وابن السبيل والأرملة والمصابين شرطًا لقبول الأعمال الصالحة، واستحقاق الأجر والثواب عليها بجلب الرحمة والمغفرة إثرها؛ يقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))؛ (سنن أبي داود، رقم: 4941)، سنن الترمذي، رقم: 1924) وهذه الرحمة تختلف باختلاف الأشخاص، و تتعدد بتعدد الأفراد، فالمريض مثلًا إذا زرته وعُدته وأعنته على مداواته فقد رحمته. وهكذا الفقير الجائع إذا أطعمته وقضيت له حاجته فقد رحمته، والأسير بغير حق إذا شفعتَ له شفاعة حسنة وسعيت في فك أسره فقد رحمته. واليتيم إذا مسحت رأسه، وأدخلت السرور على قلبه، وآنست وحشته فقد رحمته. وهلمّ جرا. لقد أولى الإسلامُ عناية فائقة ورعاية زائدة لليتامى والمساكين وأبناء السبيل، وجعلهم في عداد من يُنفق عليهم، ويُحسن إليهم، من الوالدين والأقربين والجيران؛ يقول الله – عز وجل –: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36].

لقد أوضحت الآية الكريمة ما للتعاون والتناصر والتعاضد والتراحم من قيمة كبيرة ومكانة عظيمة في الإسلام أيما إيضاح، وفصلت من هو أحق بالإحسان إليه والبرّ به، وسمّت من أبى ذلك مختالًا فخورًا ممّن يُبغضهم الله ولا يُحبّهم؛ لذا شرع الإسلامُ الزكاة فريضة محكمة، وأمرًا معلومًا من الدين بالضرورة؛ فالإسلام يهدف إلى محو فوارق ونوازع الاستعلاء والاستكبار، ودوافع الشحّ والبخل والطمع والحرص، ويرمي إلى خلق غريزة التعاون والتناصر فيما بين المسلمين، ويقول الرب – عز وجل –: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]. ويقول – عز وجل –: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

وهكذا الصومُ شرعه الإسلام لأتباعه لخلق صفة التقوى في قلوبهم؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]. «لعلكم تتقون» تحمل في طيها معانيَ كثيرة، ومطالب واسعة؛ فبالصوم يتقي المسلمَ الحرصَ، والشحّ، والطمع، والحقد، والضغن، والحسد، وحب المال، وجميع الأخلاق الرديئة، والعادات الدنيئة؛ من الاستبداد، والاستئثار، والاستغلال، والاحتكار؛ لذا ورد في الحديث عن النبيّ – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: ((الصوم جنة من النار كجنة أحدكم من القتال))؛ (سنن النسائي، رقم: 2231) جنة من النار وما يقرّب إليها من الأقوال والأفعال والأعمال التي تورث صاحبها الشحناء والبغضاء التي يتشتّت بها شمل الأمة الإسلامية، ويتفرّق جمعُها، ويتزلزل بنيانها.

وقد ذكر العلماءُ أن الحكمة في فرض الصيام هو أن يذوق الغنيّ طعم الجوع، فلا ينسى أخاه المعوز الفقير.

وفي الحج لما شرع الله فيه الهدي، نرى أن التكافل الاجتماعي وصفة التناصر والتعاضد تمتاز بها هذه الفريضة الربانية: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: 36].

لقد رغب الله – عز وجل – عباده في القيام بهذا العمل العظيم في مواضع من القرآن الكريم؛ يقول – عز وجل –: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]. ويقول – عز وجل –: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 215].

ففي الصحيحين عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: على كل مسلم صدقة. فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدّق. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر، فإنها له صدقة. (صحيح البخاري، رقم: 1445، صحيح مسلم، رقم: 1008).

وكان من سنّة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – أنه كان يهتم بإطعام الناس والإنفاق عليهم؛ ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا؛ أخرج الإمامان البخاري ومسلم – رحمهما الله – عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: كنت أمشي مع النبيّ – صلى الله عليه وسلم – في حَرّة بالمدينة، فاستقبلنا أُحُد، فقال: ((يا أبا ذرّ))، قلتُ: لبيك يا رسول الله، قال: ((ما يسرُّني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيء أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله، ومن خلفه)) ثم سار فقال: ((إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه، وقليل ما هم))؛ (صحيح البخاري، رقم: 6444، صحيح مسلم، رقم: 991

وكان – صلى الله عليه وسلم – يزداد جوده وكرمه وسخاؤه في شهر رمضان، وكان كالريح المرسلة، وقد بشّر – صلى الله عليه وسلم – أمّته بأن إطعام الطعام مما يُدخل المسلم الجنة بسلام؛ أخرج الترمذي – رحمه الله – عن أبي يوسف عبدالله بن سلام – رضي الله عنه – أنه قال: سمعتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: ((يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام))؛ (سنن الترمذي، رقم: 2485). وقد مدح الله – عز وجل – الأنصار لقيامهم بالتعاون مع المهاجرين والتناصر لهم. فقال – عز وجل –: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] وأثنى الرسول – صلى الله عليه وسلم – على الأشعريّين خيرًا لما كانوا يقومون بعمل التكافل والتعاضد فيما بينهم؛ فعن أبي موسى – رضي الله عنه – قال: قال النبيّ – صلى الله عليه وسلم –: ((إن الأشعريّين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّ طعامُ عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية؛ فهم مني وأنا منهم)) (صحيح البخاري، رقم: 2486، صحيح مسلم، رقم: 2500) وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله أقوامًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرّهم فيها ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحوّلها إلى غيرهم. (صحيح الترغيب والترهيب، رقم: 2617).

وكان أصحابُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعده يَعنُون بهذا الجانب المهمّ من الدّين أيما عناية؛ ففي فتوح البلدان للبلاذري أن عمر – رضي الله عنه – كان إذا أتي باللقيط فرض له مائة، وفرض له رزقًا يأخذه وليُّه كل شهر بقدر ما يصلحه، ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصي بهم خيرًا، ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال، وبعدما رأى من المرأة التي أرادت إجبار رضيعها على الفطام كي يفرض له من بيت المال، قال لنفسه: يا ويل عمر! كم احتمل من وزر وهو لا يعلم، ثم أمر مناديه لينادي في الناس بألا يعجلوا بفطام أولادهم، فقد فرض أميرُ المؤمنين لكل مولود في الإسلام وللمنفوس مائة درهم. (فتوح البلدان، البلاذري، 1/441).

ومما أورد الطبريّ في كتابه في حوادث سنة ثمانين الهجرية أن الوليد بن عبدالملك حبس المجذومين عن أن يخرجوا على الناس، وأجرى عليهم أرزاقًا، وكان عمر بن عبدالعزيز إذا كثر عنده أرقاء الخمس فرّقه بين كل مقعدين، بين كل زمنين خصّص غلامًا يخدمهما، ولكل أعمى غلامًا يقوده.

حفظ الأسرار من تمام الإيمان

حفظ أسرار الناس خلق عظيم من أخلاق الإسلام وأمانة من الأمانات التي يجب على المسلم أن يحفظها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ سورة الإسراء 34، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ سورة المؤمنون: 8.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة. رواه الترمذي وحسنه»

قال المباركفوري في شرحه للحديث: «تحسُن المجالس، أو حُسْن المجالس وشرفها، بأمانة حاضريها على ما يقع فيها من قول وفعل. فكأن المعنى: ليكن صاحب المجلس أمينًا لما يسمعه ويراه.

وعن عبد الرحمن بن سعد، قال: سمعت أبا سعيد الخدري، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها. رواه مسلم (1437)، وأحمد 3/69(11678).

وقد عاتب الله تعالى بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم على إفشاءها سرا للنبي عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك سببا لنزول سورة كاملة من سور القرآن الكريم وهي سورة التحريم التي قال الله تعالى في مبتدأها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ × قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ × وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ سورة التحريم 1-3.

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت سورة التحريم بالمدينة، ولفظ ابن مردويه سورة المحرم. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾، قوله: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾، اختلف في سبب نزول الآية على أقوال: الأول قول أكثر المفسرين. قال الواحدي: قال المفسرون: كان النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة فزارت أباها، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم في وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها: لا تخبري عائشة ولك علي أن لا أقربها أبدا، فأخبرت حفصة عائشة وكانتا متصافيتين، فغضبت عائشة ولم تزل بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقرب مارية، فأنزل الله هذه السورة. قال القرطبي: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة، وذكر القصة.

وقيل السبب أنه كان صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما إنا نجد منك ريح مغافير فحرم النبي صلى الله عليه وسلم العسل على نفسه فأنزل الله هذه الآيات. تفسير ابن كثير 8/161، تفسير القرطبي 10/312، فتح القدير للشوكاني 5/348 صحيح البخاري (5431).

يقول الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرَّهُ بلسانه
ولامَ عليه غيرَهُ فهو أحمقُ
إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسه
فصدرُ الذي يستودَعُ السرَّ أضيقُ

وأسرار البيت ليست على درجة واحدة من الأهمية، فهناك أسرار العلاقة الخاصة بين الزوجين وهذه يجب أن تحتفظ بها الزوجة في بئر عميق داخل نفسها – وكذلك الزوج – وقد مر علينا تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من إفشاء هذه الأسرار. قال الله تعالى في وصف المؤمنات الصالحات: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾، سورة النساء 34.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال: عن شهر، قال: حدثتني أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرجال والنساء قعود عنده، فقال: لعل رجلا يقول ما يفعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها، فأرم القوم، فقلت: إي والله، يا رسول الله، إنهن ليفعلن، وإنهم ليفعلون، قال: فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل الشيطان لقي شيطانة في طريق فغشيها والناس ينظرون. أخرجه أحمد 6/456.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾. سورة التحريم: 10.

قال بعض المفسرين عن هذه الخيانة: إن امرأة نوح كانت تكشف سره فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، أما امرأة لوط فكانت إذا استضاف لوط أحدا أخبرت أهل المدينة ممن يعملون السوء حتى يأتوا ويفعلوا بهم الفاحشة. تفسير الطبري 23/497.

يقول الشاعر:

واحفظ لسانك واحترز من لفظه
××× فالمرء يسلم باللسان ويعطب
والسر فاكتمه ولا تنطق به
×××فهو الأسير لديك إذ لا ينشب
واحرص على حفظ القلوب من الأذى
×××فرجوعها بعد التنافر يصعب
إن القلوب إذا تنافر ودها
×××مثل الزجاجة كسرها لا يشعب
وكذاك سر المرء إن لم يطوه
×××نشرته ألسنة تزيد وتكذب

وقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم أهل بيته على ذلك عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم مرحبا بابنتي ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم أسر إليها حديثا فبكت فقلت لها لم تبكين ثم أسر إليها حديثا فضحكت فقلت ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن فسألتها عما قال فقالت ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم فسألتها فقالت أسر إلي إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي وإنك أول أهل بيتي لحاقا بي فبكيت فقال أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين فضحكت لذلك. أخرجه «البخاري» 4/247 وأحمد 6/282).

وعن أنس بن مالك، قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وأنا ابن ثمان سنين، فأخذت أمي بيدي، فانطلقت بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إنه لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا قد أتحفتك بتحفة، وإني لا أقدر على ما أتحفك به، إلا ابني هذا، فخذه فليخدمك ما بدا لك، فخدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما ضربني ضربة، ولا سبني سبة، ولا انتهرني، ولا عبس في وجهي، وكان أول ما أوصاني به أن قال: يا بني، اكتم سري تك مؤمنا. فكانت أمي وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألنني عن سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا أخبرهم به، وما أنا بمخبر سر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا أبدا. أخرجه الترمذي (589 و2678 و2698) وانظر: المسند الجامع 2/396).

آداب دخول المنزل والخروج منه

ينظر الإسلام للمنزل باعتباره مكانًا يأوي إليه الناس ليجدوا فيه الراحة والأمن والطمأنينة، ومن ثم فقد شرع للدخول والخروج منه آدابًا تتحقق معها كل ذلك، ومن تلك الآداب:

أ- إلقاء السلام: وذلك لأن السلام هو تحية أهل الجنة، قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، بل سمى الله تعالى الجنة دار السلام، لما في السلام من الراحة والطمأنينة، حيث إن السلام يحمل في طياته كل الخير وإلا لما كان جزاء أهل الجنة، قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لذا كان من الآداب لمن يدخل بيته أن يسلم، حتى لو لم يكن في البيت غيره، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾. وكيفية السلام أن يقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ويجاب عليه بـ(وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) بصيغة الجمع كذلك، كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا جبريل يقرأ عليكِ السلام» قالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته». وروى البخاري في الأدب المفرد عن جابر رضي الله عنه: «إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة». قال: ما رأيته إلا توجيه قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾

ب- ذكر الله تعالى: فينبغي لداخل البيت أن يسمي الله تعالى؛ لأن الشيطان لا بقاء له مع اسم الله تعالى. وإذا كان المنزل يراد منه أن يكون مكانًا للراحة والطمأنينة، فلا يمكن أن يحصل ذلك مع بقاء الشيطان الذي يسعى لإضلال بني آدم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولكن أخبر الله سبحانه بأن السلاح الذي يواجه به هذا العدو هو ذكره سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عز وجل عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، فإذا دخل ولم يذكر الله قال: أدركتم المبيت، وإن لم يذكر الله عند طعامه قال الشيطان: أدركتم المبيت والعشاء»، وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرا لدخول المنزل وهو: «اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا»، وأما إذا أراد الإنسان أن يخرج من بيته فليسلم على أهله، ثم يخرج متزينا متسترا، ثم يذكر دعاء الخروج من المنزل وهو: «باسم الله آمنت بالله واعتصمت بالله، وتوكلت على الله».